

## من حِكْمِ الله تعالى في استشهاد العلامة البوطي

الكاتب: محمد الغريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أريد أن أبين في هذه الأسطر، بعضاً من حكم الله تعالى التي تجلّت في خاتمة الإمام الشهيد السعيد رضوان الله تعالى عليه، وسأختصر ذلك في الآتي.

**1 - الخاتمة العجيبة:** لاشكّ أنّ كل إنسان مسلم يسأل الله تعالى حسن الخاتمة، ويتمنّى أن يكرمه الله تعالى بالشهادة في سبيله.. وأن أقصى ما يرجوه العالم الرتاني هو أن يقبضه الله تعالى في مجلس العلم، يعلم الناس الخير، ذلك أنّ هذا من أعظم أنواع الجهاد، وقد ورد عن أبي الدرداء وابن عمر رضي الله عنهم: **(يوزن مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء)** وهل ضحّى الشهداء بأرواحهم إلا بسبب ما سمعوه من العلماء؟. ولا أظنّ أن غاية ما كان يطمح إليه العلامة البوطي كان يعدو هذا، بل أجزم أنّه لو كان إليه أمر خاتمته، لما كان خياله يتّسع لأكثر من هذا.. أن يرحل إلى الله تعالى وهو في مجلس العلم.

بيد أنّ الله تعالى شاء أن يكرمه بما لا يخطر على قلب بشر.. وهو جلّ وعلا إذا أعطى أدهش بعطائه.. ألم يستجب دعوة سيّدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، إذ كان يقول: **"اللهمّ إني أسأل شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام"** وهذا دعاء غريب، فدولة الإسلام هي القوة العظمى في العالم، وقد ابتلعت إمبراطورية كسرى، وأودت بقيصر، فكيف يستشهد أمير المؤمنين في قلب عاصمة دولة الإسلام؟. بلى، لقد أكرمه الله بالشهادة في سبيله، و في بلد رسوله عليه الصلاة والسلام.. إنّه عطاء الله تعالى، واستجابته لعباده الصادقين.

ولقد تحققت أمنية العلامة البوطي فقبض على كرسي الدرس،.. ثمّ جاءت الزيادة من عند الله تعالى، فكانت الشهادة التي ساقها الله تعالى إليه سوقاً، ليموت عظيماً كما عاش

عظيماً.. أجل هل كان يُخطر ببال العلامة البوطي أن يقبضه الله تعالى شهيداً، وأن يقبضه وبين يديه كتاب الله تعالى - وليس غيره - يفسّره، وأن ترتفع معه حلقتة، يرتقي معه ما يزيد على الأربعين من طلابه ليتابع معهم درسه في الملاء الأعلى، ولينتقل من روضة من رياض الجنة في الدنيا، إلى رياض الجنة في رحاب الله تعالى؟!.

أسأل الله تعالى أن تكون البقية - ممن كانوا حاضرين في حلقتة، والذين غابوا عنها بأشباحهم وتعلّقت بها قلوبهم - على موعد مع شيخهم، وأن يكرمهم الله تعالى بمثل ما أكرم به إمامهم وإخوانهم.

## 2 - فضح أعداء الله والمتلاعبين بشرعه: لقد كانت العملية الانتحارية التي نقّدها

أشقاها وبالأعلى ذلك الشقي، وعلى من أفتاه بها، أو حرّكه لتنفيذها، من عميان القلوب، ففي الحديث عن سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ).. إنَّ وزر هذه الجريمة ووبالها سيلاحق أولئك الذين أوغروا صدر هذا الشقي على ربّاني الأمة وزاهدتها، وعلّمتها الناطق بحجّتها، فزجّت به العماهة في جريمة لا يتقبّلها مؤمن، ولا حتى كافر.. كيف والجريمة بيّنت نموذجاً جديداً من المخلوقات التي مسخها الله تعالى مسخاً عجيباً؛ ولا كذلك مسخ القردة والخنازير، لا يراعون حرمة بيت الله تعالى، ولا لكتابه، ولا للعلم والفكر، ولا للأبرياء من عباد الله، الذين لا ذنب لهم إلا أنّهم حضروا درس علم، يبتغون معرفة أحكام الله تعالى، وتقرباً إلى جنابه.. لا أتصوّر أن هذه الكيفية التي تمّ بها تنفيذ جريمة العصر بامتياز، إلا مصداقاً لقوله تعالى: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) أجل لقد زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وأعماها، وإلا فهل يتصوّر أن يعلّق العدو على صدر عدوّه - من حيث يريد إسقاطه - أعظم وأشرف وسام؟!.

## 3 - تطيب الله تعالى لحاظر الشهيد: لقد كان ممكناً، أن يتخلّص هؤلاء الحاقدون من

شخص الشهيد البوطي، بكيفية يصقّق لهم بسببها بعض المعقّلين والسّفهاء والبله والغوغاء، ولكن ما كان الله تعالى ليهلك بسبب شهادة الشهيد السعيد مسلمين تقاصرت أفهامهم وضاعت مداركهم عن استيعاب موقفه، كيف وهو الذي كان يسأل الله تعالى أن يعفو عمّن

أساء إليه، واثمه بالنفاق اجتهاداً أو جهلاً، ومن ثم وقع في عرضه سبباً وشتماً، بل كان يسأل الله تعالى أن يثيبهم على اجتهادهم.. إنَّه القلب الرحيم العارف برَّبِّه، والموصول به جلّ وعلا، والشفوق على عباده.

لقد شاء الله تعالى أن يتمم إكرامه لشهيد المحراب الثاني، بالألّا ينغص عليه شهادته بإهلاك بعض المسلمين بسببه؛ فجعل استشهادَه فضحاً لأدعياء الجهاد والإسلام، وعصم أيضاً كثيراً من البسطاء من أن يحركوا ألسنتهم بقالة السوء في حقّه، أو أن يبدوا الشماتة والتشقي بنهايته.. أجل، لقد افتضح أمر المجرمين المارقين، الذين حدّر منهم سيّد الأولين والآخرين، وتمتّى لو أنه عليه الصلاة والسلام قتلهم بيده الشريفة.. أليس هؤلاء هم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، الذين يقولون من قول خير البرية، ويمرقون من الدّين كما يمرق السّم من الرميّة؟.. من غير هذه الفئة الضّالة المارقة تقدم على مثل هذه الجريمة النكراء، من يقدم عليها إلا السّفهاء الذين شيّخوا على أنفسهم شياطيناً يتاجرون بالدّين، ويبيحون قتل المسلمين البرّاء باسم الجهاد، ويعدون السفهاء الأثقياء بالخور العين إن هم نقذوا جرائمهم.

ها قد أضاء الصبح لذي عينين، وافتضح أمر المتاجرين بدين الله تعالى، أولئك الذين سارعوا من اللحظة الأولى إلى دفع التهمة عن أنفسهم، ولكن أتى لهم ذلك، وما أفتوا به من جواز قتل من حرّم الله قتله، وما قاموا به من التحريض على ذلك دخل كلّ دار، وسمعه كل ذي سمع، وعان ما قاءته أفواههم المفتتحة على شرع الله كلّ من يبصر؟!.. ستكتب شهادتهم ويسألون.. والله الموعد.

#### 4 - رحمة الله تعالى بأحباب الشهيد السعيد وتلامذته: لقد كان العلامة البوطي إمام

بلاد الشام بلا منازع، بل كان أبرز علماء الأمة قاطبة، وكان مثال العالم الرّبّاني، الذي يدرك بسلف هذه الأمة وبكبار صالحها، فتعلقت به قلوب الآلاف المؤلّفة من المسلمين، وكان مفزع الناس عند كلّ ملّمة، قبل هذه الفتنة - عجل الله تعالى بكشفها وزوالها مع العافية التامة - التي ناءت بكلّكلها الرّهب على الشام وأهل الشام، فاضطرت من جرّائها الرّؤية عند كثير من الناس، وأضاعوا البدهيات، فوقع ما لم يكن يخطر في البال، وهو أن يتهم العلامة البوطي في دينه وبمالأة الظلمة والوقوف إلى جانبهم، وتبرير اعتداءاتهم، واثم بالخيانة.. ولكن الذين عرفوا الشيخ ازدادوا تمسكاً به، وكان يعظم يوماً فيوماً في أعينهم وفي

قلوبهم؛ ذلك أنهم رأوا فيه النموذج العملي للعالم الربّاني الذي يتسامى فوق أغراض الدنيا، ويضحّي بكل شيء في سبيل مرضاة ربّه، ومن أجل أن يلقي سيدنا رسول الله غير معيّر ولا مبدّل، نعم لقد أعرض عن الدنيا وتسامى على زخارفها وحطامها الماديّ والمعنوي، ولسان حاله يتمثّل هذه الأبيات، التي طالما ناجى بها ربّه:

وليتك ترضى والأنام غضاب

فليتك تحلو والحياة مريرة

وبيني وبين العالمين خراب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وكلّ الذي فوق التراب تراب

إذا صحّ منك الودّ فالكل هيّن

ما كان تلامذته ومحّبوه يتصوّرون أن يأتي يوم يجرمون فيه من بركة رؤيته، ومن سماع حديثه العذب، وكان يعزّ عليهم أكثر أن يرحل عن الدّنيا من دون أن تظهر علامات صدقه لأولي البصائر، فلذا كانوا يطمعون أن ييقنه الله حتى تنجلي الفتنة، ويتّضح للناس حقيقة موقفه وسداد رأيه، ولكنّ الله تعالى لطف به وبهم . . لطف به إذ أخرجته من جوّ الفتنة المكرب، ومن الفظاعات التي ترتكب فيها، ومن الظلم الذي ينحطّ على الأبرياء، وقد كان الشهيد مرهف الإحساس، يتأثّر من الشيء الذي لا خطر له؛ فكيف بهذه الأهوال التي ترتكب كلّ يوم، لقد استأثر الله تعالى به ورفعته إلى دار كرامته، وإلى محلّ القرب من جنابه جلّ وعلا، ثمّ أكرم تلامذته ومحّبيه كذلك - والحمد لله - إذ جعل من استشهاد إمامهم خير عزاء لهم.

إنني واحد من أقلّ أولئك الذين أكرمهم الله تعالى بمحبّة هذا الإمام الجليل، وأسأل الله تعالى أن يزيدني حبّاً فيه، ووالله ما أحببته لغرض دنيوي، ولكن لأنني لم أجد من هو في مثل صدقه وبصيرته وتقواه، لقد شدّني إليه صدقه، وحبّبه إليّ علمه، وشدّني إليه اللّوعة الصادقة التي تميّز بها . . كنت أجد عنده الحرقّة على دين الله، و أحسنّ في كلماته زفرات فؤاد ملتانع، و أشمّ فيها رائحة قلب يتضرمّ فيه نار الشوق إلى الله تعالى والخشية من جنابه . . كنت أرى فيه مثال العالم الربّاني ذي الشخصية المتكاملة، الذي يجمع بين الموسوعية العلمية القائمة على التحقيق، والفكر الثاقب والبصيرة النافذة، والقلب الخاشع والضراعة الواجفة، وأناقة المظهر.. وما كنت أتصوّر الدنيا بدونها، ولكنني كلّما تذكّرت الهيئة التي رحل بها إلى الله تعالى؛ امتلأ كياني كلّهُ نشوة وطرباً، وشعرت برضى بالغ، بل بسرور عجيب يسري في كياني، تظهر آثاره في أسارير وجهي.. وهل هناك وليّ لله تعالى أو واحد من كبار الصّديقين لا

يغبطه على تلك الخاتمة العزيرة التي أكرمها الله تعالى بها، و التي تذكّر بقول الله تعالى: **(إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** وقوله تعالى: **(كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ)** و قوله تعالى: **(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)** فإني أرى في هذه الخاتمة - ولا أتألى على الله تعالى، وإنما لنا الظاهر - شهادةً من الله تعالى بطهارة هذا الإمام السعيد ونبله وصدقه مع ربّه. لقد كان شاقاً عليّ أن تبقى حقيقة إمامي خفية على الناس، وأن يترك الله تعالى أمر إظهارها إلى يوم القيامة؛ فلما جاءت الخاتمة بالشكل الذي قدره الله تعالى؛ علمت أنّ الله تعالى شاء أن يظهر لعباده الذين يفهمون عنه مكانة الرجل عند ربّه، وصدقه الفريد مع جنابه، وفهمتُ من ذلك أن هذه بداية تؤذن بأنّ الله تعالى سيعلي شأنه بعد رحيله، وسيظهر دلائل صدقه في الدنيا قبل الآخرة.

**5 - رفع الله شأنه وشأن المدرسة التي كان هو إمامها في هذا العصر:** لقد كان بعض الجهّال وبعض أنصاف المتعلّمين، وأخرون ممن يُنسبون إلى العلم، وبعض من يحمل ألقاباً علمية مرموقة، يقولون عن الشيخ الشهيد إنه قد باع دينه، وأثّه قد افتتن في آخر عمره، وركن إلى الذين ظلموا، وربما كان فيهم من يجزم أن خاتمة السوء بانتظاره، وكان فيهم من يتحسّر على موقفه من أحداث سورية ويقول: لقد سقط بسبب موقفه هذا، وأسقط مدرسة كاملة، يقصد بذلك مدرسة أهل السنّة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية، التي كان هو وجهها وصاحب لوائها وشمس سمائها في هذا العصر بحمد الله تعالى، فقد كان درّة في هذه السلسلة الذهبية المباركة الفريدة، التي من أبرز نجومها حجّة الإسلام الغزالي رضوان الله عليه.. ثمّ جاءت هذه الخاتمة العجيبة، لتقول لكل من عنده مسكة من عقل، وبقية من البصيرة: أتراه سقط، وأتراها سقطت مدرسة أهل السنة والجماعة، أم أنّ الله تعالى رفعه، وزاد به مدرسة أهل الحقّ رفعة وتألّفاً، وسودّ به - حياً وميتاً - وجوه المبتدعة والتكفيريين، الذين ابتليت بهم هذه الأمة المحمدية في هذا العصر؟!.

**6 - دفاع الله تعالى عن أوليائه:** كان الشهيد السعيد غير مبال بالدفاع عن نفسه، وكان - حين يسمع وقوع الناس فيه - يردّد قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)** يقولها مع ابتسامة تنبي عن اليقين والرضى والثقة التامة بوعده الله تعالى، فهل تركه الله تعالى؟! حاشا

وكلاً، لقد شاء الله تعالى أن يُنطق الموافِقَ والمخالف، بل حتى الحاقِدَ الذي بقيت فيه أثارة من الإنسانية، باستنكار الجريمة الفظيعة، التي استهدفت تغييب صوت الحقِّ والرأي الحرِّ من خلال قتل العلامة البوطي.. أجل، لقد اختلف الناس في شأن هذا الإمام الجليل في حياته، ولكنهم لم يختلفوا يوم شهادته، بل اتَّفَقوا جميعاً على أن ما جرى جريمة بكل المقاييس.. وهنا أقول: إنَّ هذا من آثار بركة الإمام الشهيد، ومن علامات غيرة الله تعالى عليه، إذ جعل موته بداية وفاقحة للتقارب بين الإخوة المختلفين بشأنه، تؤذَنُ بأن ما كان من الاختلاف سيؤول إلى وفاق بإذن الله تعالى.. ألم يحذّر الشهيد من التكفيريين، ألم يقل إن ما يجري في سورية مؤامرة يُبتغى بها إسقاط الإسلام باسم الإسلام، وليس الغاية منها إسقاط النظام، وأنّه يبتغى من وراء هذه الفتنة إشعال حرب طائفية لا تحمد، وتسليط هذه الفئة المارقة العميلة على رقاب المسلمين؟! نعم لقد كانت هذه العملية الانتحارية دليلاً ساطعاً وبيانياً قاطعاً، بأنَّ هذه الفئة العميلة، المتمردة على الدين وعلى الإنسانية - التي لا تعرف حرمة الله تعالى ولا لبيوته ولا لعباده ولا لحرية الرأي - لن ترحم أحداً، ولن تتردّد ولو للحظة في قتل كلِّ من لا يكون منقاداً لها، وملتزمًا بالتبعية العمياء لها.. وهذا نحن اليوم نرى ونسمع رؤوس المعارضة يعلنون عن تبرّمهم بهذه الفئة.

وفي الختام أسألك اللهم، أن تتقبّل عبدك العلامة محمد سعيد رمضان البوطي ومن كان معه في الشهداء والصّدّيقين، وأن تكرمهم بجوار سيّد الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، وأسألك يا ربّ العالمين بحرمة هؤلاء الأبطال أن تجعل من شهادتهم سبباً لفرج قريب قريب للشام وأهله، وعودة للأمن والأمان وعِزة الإيمان إلى ربوع شامنا المباركة، وتقرّر بذلك أعينهم وأعين عبادك المسلمين، وأسألك يا ربّ العالمين، يا حيّ يا كريم، بجيِّ له ولعبادك الصالحين، أن تكرمني وسائر تلاميذ سيّدنا وإمامنا السعيد بما أكرمته به من الثبات على الحقِّ، والشهادة في سبيل إعلاء كلمتك، وأن تلحقنا بهم وأن تجمعنا بهم في دار كرامتك؛ بمحض فضلك وجودك ومثك إنك أكرم الأكرمين.

الجمعة 9 جمادى الثانية 1434هـ، الموافق 19 نيسان 2013م